التعـريف بعين القضاه الهمذانى

صاحب كتاب « زبدة الحقائق »

للأستاذ الدكتور

ابراهيم أحمد محفوظ

أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة

بكلية الدراسات الاسلامية والعربية

للبنـات بالاسكندرية

﴿ ٥٩٥ ﴾

التعريف بعين القضاه الهمذانى

صاحب كتاب «زبدة الحقائق»[١]

أولاً: حياة عين القضاه الهمذانى

اتفقت كتب التراجمة التى اطلعت عليها على تسميته: عبد الله ابن محمد بن على بن الحسن بن على السهروردى الهمذانى، وعلى شهرته بعين القضاه، وتكنيته بأبى المعالى، كما اتفقت أيضاً على وفاته عام ٥٢٥هـ.

أما عن مولده:

فلم أجد له ذكراً فى الكتب التى تعرضت لذلك لا من قريب ولا من بعيد اللهم إلا عبارة عثرت عليها فى كتاب «شخصيات قلقة فى الاسلام» وهو يتحدث عن السهروردى المقتول وما بينه وبين عين القضاة من صلة روحية وشبه كبير فيقول: «الصلة الروحية العميقة التى تربطه - يقصد السهروردى المقتول - برجل كالحلاج أو بتلميذ أحمد الغزالى وهو الشيخ الفتى عين القضاه الهمذانى الذى مات مثله شهيد ابعد أن جاوز الثلاثين بقليل - هذه الصلة تقوم قبل كل شئ على تشابه طريقهم فى الوجود والحياة»[٢].

فهذه العبارة إن صحت يكون عين القضاة مات ولم يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره، وعلى التحديد فيكون موته وصلبه وهو ما بين الواحد والثلاثين والخامسة والثلاثين سنه.

---

(١) سوف نخصص هذا البحث للتعريف بالمؤلف، أما المؤلف فسوف نخصص للتعريف به بحثاً آخر فى عدد قادم إن شاء الله تعالى.

(٢) ماسينون - شخصيات قلقة فى الاسلام ص ١٣٢ مكتبة الأزهر.

﴿ ٥٩٦ ﴾

وعليه: فإذا كانت وفاته – كما اتفقت عليه كتب التراجم سنه ٥٢٥هـ – يكون مولده ما بين سنة ٤٩٠، ٤٩٥هـ.

وسواء صح ما رواه وما حدده ماسينون أو لم يصح فإنه قد تبين لى من خلال نظراتى المتكرره فى كتب التراجم أن اغفال تاريخ الميلاد لمشايخ الشافعية[1] هى عادة اتبعها فى الأكثر كل من ترجم لهم.

ولست أقول لك مجازفة ولا ادعاءاً بل ذاك قول يؤيده الواقع والدليل، وحسبك نظرة فى كتاب «طبقات الشافعية» لتقف على صحة ما أقول.

أما عن مكان ولادته

فحمد الله أن ذكر الهمذانى ذلك بنفسه عن نفسه فى كتابه «الزبدة» وذكر صراحة أن مسقط رأسه «همذان»[2] من بلاد خراسان حيث يقول: «..... حتى إن سيدى ومولاى الامام الأجل سلطان الطريقة وترجمان الحقيقة أبا الفتوح أحمد بن محمد الغزالى متع الله بأنفاسه أهل العصور والاسلام وجزاه عنى خير جزاء ساقه التقدير إلى «همذان» وهى مسقط رأسى فانكشف فى خدمته قناع الحيرة.....».

فهمذان – وهى مدينة من مدن خراسان بإيران – هى موطن عين القضاة وإليها كانت نسبته وبها أيضاً صلب وقتل، فهى اذن موطنه مولداً ووفاة.

وإذا كان عين القضاه قد صرح بهذا فقد صرحت كتب التراجم بأن حادثة صلبه كانت ايضاً بهمذان.

---

(١) سوف يتضح لك أن الرجل – رحمه الله – شافعى المذهب فى الفروع أشعرى المذهب فى الأصول والعقائد.

(٢) وربما – إن اسعفنا الوقت – نعقد فصلاً خاصاً تعرف فيه بتلك المدينة وطبيعة جوها ودخولها فى الاسلام.

وعلى سبيل المثال يقول صاحب كتاب «معجم المؤلفين»: «عبد الله الله بن محمد بن على بن الحسن بن على الميانجى السهروردى الهمذانى ويعرف بعين القضاة (أبو المعالى) حكيم، فقيه، شاعر، صوفى أخذ عن عمر الخيام وأحمد الغزالى وصلب بهمذان»[١].

ومن كتاب «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكى: «صلب عين القضاه أبو المعالى ظلماً ببلدة همذان ليلة الاربعاء السابع من جمادى الآخرة سنة خمس وعشرين وخمسمائة»[٢] اذن تكون «همذان» هى وطن عين القضاه – كما قلنا – مولداً ووفاة على وجه التحقيق والتدقيق والتوثيق.

كلمات عن همذان
بناؤها – دخولها فى الاسلام – طبيعة أرضها

أما عن همذان – بالتحريك والذال المعجمة وآخره نون – فهى مدينة من مدن خراسان التى هى بلاد الفرس قديماً والتى تسمى الآن «ايران».
وقد اختلف فى بنائها وانشائها على عدة أقوال.

ففى معجم البلدان:

«قال هشام بن الكلبى: همذان سميت بهمذان بن الفلوج بن سام بن نوح عليه السلام، وهمذان وأصبهان أخوان بنى كل واحد منهما بلده»[٣].
وإذا كانت رواية هشام هذه تصرح بأن الذى بنى همذان هو همذان بن نوح عليه السلام ولذلك سميت باسمه، فهناك – فيما يتعلق بذلك – روايات أخرى

(١) كحالة – معجم المؤلفين ح ٦ ص ١٣٢.
(٢) السبكى – طبقات الشافعية الكبرى ص ٢٣٦ ج ٤.
(٣) ياقوت الحموى – معجم البلدان ج ٥ ص ٤١.

تثبت غير ذلك ونتجه اتجاهاً آخر.

ولذلك فقد جاء فى «معجم البلدان» أيضاً:

«ووجد فى بعض كتب السريانيين فى أخبار الملوك والبلدان أن الذى بنى همذان يقال له كرفيس بن حليمون، وذكر بعض علماء الفرس أن اسم همذان إنما كان نادمه ومعناه المحبوبه»(١).

وقيل إن أول من بنى (همذان) جحه بن توجهان بن شامخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام»(٢).

هذه أقوال فى بناء همذان، وهى - كما ترى - متعارضة ومتناقضه كما تبدو فى ظاهرها ويمكن التوفيق بين جميعها: بأن الذى بناها وأخرجها إلى الوجود أول مرة هو «همذان» ابن نوح عليه السلام وبه سميت كما هى رواية هشام.

ثم تجدد بناؤها بعد ذلك مرات ومرات على أيدى هؤلاء وغيرهم، وذلك بعد ما كان نبتا بها - المرة تلو الأخرى - من خراب ودمار بفعل المعارك والحروب.

ويشهد لذلك ما جاء فى «معجم البلدان» من أن هذه المدينة قد تتابعت عليها الحروب وتجدد أكثر من مرة بناؤها. وإذا كان الخلاف قد وقع فى بانيها ومنشئها، فذلك بالنسبة لفتحها ودخولها فى الاسلام.

فمتى كان ذلك وعلى يد من؟ خلاف.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

ففى «فتوح البلدان» للبلاذرى:

أن الذى فتحها هو جرير بن عبد الملك البجلى، وكان ذلك بأمر من المغيرة بن شعبه وهو عامل عمر بن الخطاب على الكوفه فى ذلك الوقت.

وكان ذلك سنة ثلاث وعشرين من الهجرة.

يقول صاحب «فتوح البلدان»:

«وجه المغيرة ابن شعبة – وهو عامل عمر بن الخطاب على الكوفة بعد عزل عمار بن ياسر – جرير بن عبد الملك البجلى إلى همذان وذلك فى سنة ثلاث وعشرين، فقاتله أهلها وأصيبت عينه بسهم فقال: احتسبتها عند الله الذى زين بها وجهى ونور لى ما شاء تم سلبها فى سبيله»(١).

هذا ما جاء فى فتوح البلدان.

أما فى معجم المؤلفين فقد جاءت روايتان:

الرواية الأولى: أن الذى فتحها هو المغيرة بن شعبه وكان ذلك سنة ٢٤ من الهجرة.

والرواية الثانية: هى نفس الرواية السابقة فى فتوح البلدان.

وعلى هذا فنحن أمام روايتين.

تفيد احداهما أن الذى فتح همذان هو جرير بن عبد الملك البجلى وأن ذلك كان فى سنة ثلاث وعشرين من الهجرة.

وتفيد الثانية: أن الذى فتح همذان هو المغيرة بن شعبة نفسه وكان ذلك سنة أربع وعشرين للهجرة.

ونحن نرى أن هاتين الرواتين وأن بدتا متعارضتين فليس بينهما – فى الحقيقة

(١) البلاذرى – فتوح البلدان ج ٢ ص ٣٨٠.

- تعارض ولا تناقض، بل تقوى احداهما الأخرى وتعضدها، والجمع بينهما متيسر والتوفيق بينهما ممكن.

فالفاتح فى الحقيقة هو جرير بن عبد الملك كما هى رواية فتوح البلدان واحدى روايتى معجم البلدان، وكان ذلك الفتح من جرير بارسال وتكليف من المغيرة من شعبه.

وعليه: فالذى رأى جرير فاتحاً انما نظر إلى المباشرة والتنفيذ، والذى رأى شعبة فاتحاً إنما نظر إلى الارسال والتوجيه، أو بعبارة أخرى: نظر الأول إلى جرير من حيث هو المباشر والمنفذ.

ونظر الثانى إلى شعبة من حيث هو المرسل والموجه والآمر، وكلا النظرتين صحيح، وكلا الرؤيتين حق وله اعتباره فى عملية الفتح والنصر.
وهذا اوضح بأدنى تأمل.

أما بالنسبة لتاريخ الفتح وتردده فى الروايتين بين سنة ثلاث وعشرين وأربع وعشرين:

فيوفق بينهما أيضاً بأن ارسال جرير وتوجهه إلى المدينة انما كان ذلك سنة ثلاث وعشرين.
أما عملية الفتح والغلبة والسيطرة والتمكن والظهور، فقد تحقق كل هذا سنة أربع وعشرين، وذلك أمر طبيعى فى مثل هذه الأحداث.

أما عن طبيعة جوها: فهى من أحسن بلاد العالم واعذبها ماء وأطيبها هواء، وكانت - ولا تزال - محلا للملوك وموطناً لأهل الدين والفضل.
إلا أن شتاءها شديد البرودة حتى قال فيه القائل:

لئن خيرت فى البلدان يوماً فما همذان عندى بالخيار

وقال الآخر:

«النار فى همذان يبرد حرها»

وفى معجم البلدان:

«ولا شك عند كل من شاهد همذان بأنها من أحسن البلاد وأنزهها وأطيبها وأرفهها، ومازالت محلاً للملوك، ومعدنا لأهل الدين والفضل، إلا أن شتاءها مفرط البرد بحيث أفردت فيه كتب وذكر أمره بالشعر والخطب.

﴿٦٠٢﴾

نبذة عن عصر عين القضاة الهمذانى

لابد لنا – ونحن نتحدث عن عين القضاه وعن حياته – من كلمة موجزة عن العصر الذى عاش فيه الرجل لنرى مبلغ تأثره به وانفعاله معه. كذلك لنتبين الدوافع الحقيقية التى دفعت بعين القضاه إلى كتابة الزبدة والتى تعد أشهر ما كتب باطلاق مطلق.

وسنتكلم عن هذا العصر من ناحيتين السياسية والاجتماعية وأثر ذلك على الناحية العلمية:

أولا: الناحية السياسية:

سبقت الاشارة إلى أن عين القضاة توفى عام ٥٢٥هـ وأن وفاته كانت بعد أن جاوز الثلاثين بقليل.

وهذا يعنى أن حياته تقع فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين، تلك الفترة التى شهدت تمزق أطراف الدولة العباسية بعد أن ضعف الخلفاء وزالت هيبتهم من النفوس فنبتت ممالك كثيرة وانفصلت دويلات عديدة يحكمها أمراء يتمتعون باستقلال يكاد يكون تاماً عن الخليفة العباسى ببغداد. فلا يربطهم به إلا ذلك الرباط الاسمى الصورى وهو ذكر اسمه فى الخطب أيام الجمع والأعياد.

وكانت خراسان – وهى موطن عين القضاة – من بين الدويلات التى انسلخت عن الدولة العباسية مستقلة بنفسها وأخذت تشن غاراتها على جاراتها لتفرض سيطرتها عليها وذلك فى عام ٣٣٤ هـ تقريبا[١].

(١) راجع: البداية والنهاية لابن كثير ج ١٢ ص ٣٩.

وقد بلغ من اتساع نفوذ اليويهيين إبان حكمهم لولاية خراسان أنهم لم يقف بهم الأمر عند حد السيطرة على جيرانهم فى الدويلات الأخرى بسبب ضعف الحكم العباسى بل فرضوا سلطانهم وارادتهم على الخليفة العباسى نفسه(١).

وكان من نتيجة ذلك أن عمت الفوضى البلاد وخاصةفيما يتصل بأمور المذاهب والمعتقدات، حيث انتشر دعاة الشيعة وانبثوا فى كل مكان يريدون خلع الخليفة العباسى السنى، وكان الخليفة الفاطمى نفسه أكثر أولئك الذين يحلمون بذلك ويشجعون عليه ويوجهون كل طاقاتهم إليه، وترتب على ذلك أن اضطرب الناس وثار بعضهم على بعض وانتشرت الفتنة بينهم.

واستمر الحال على ذلك إلى أن ظهر السلجوقيون فى خراسان وكان ذلك حوالى سنة ٤٢٦هـ وكانوا يتبعون المذهب السنى(٢).
ورويدا رويدا تمكن السلجوقيون من السيطرة على البلاد وأصبحت لهم الغلبة ودام لهم السلطان الفعلى على الخليفة ببغداد حتى سنة ٥٩٠هـ.

لكن ظهور السلجوقيين فى خراسان وزيادة نفوذهم فيها لم يقض على الفتن المذهبية ولم يؤثر فيها إذ انقسم السلجوقيون أنفسهم فيما بينهم ثم دب النزاع بين صفوفهم وكثر الشقاق بينهم.

وهب دعاة الشيعة من الفاطميين وتقاتل الفريقان وقامت بينهم حروب دامية كثيراً ما كان يذهب ضحيتها عديد من الابرياء. وكانت نيسابور – وهى مدينة من مدن خراسان – والتى هى موطن عين القضاه من بين البلدان التى

(١) راجع: الجوينى امام الحرمين د/ فوقيه حسين ص ٢٩.
(٢) المصدر السابق.

كثيراً ما وقعت فيها مثل هذه الحروب.

(ويمكنك الرجوع إلى الكامل لابن الأثير ح ٣ ص ٢٢١ وما بعدها وكذلك البداية والنهاية لابن كثير ح ٢ ص ٦٢) لتقف على هذه الحوادث الكثيرة والمتتابعة والتى وصلت فى أحيان كثيرة إلى حد القتل وسفك الدماء.

فقد حدث عام ٤٤٤ هـ أن اختطفت جماعة القواد الاتراك رجلا شيعياً وذبحوه على مرأى من نسائه فصرخن ونثرن شعورهن. وأثار ذلك بالطبع شعور الشيعة فتشابكوا بعنف مع أهل السنة وتقاتلوا وتكبد كلا الفريقين خسائر فادحة[1].

وحوادث أخرى كثيرة ليس المجال مناسباً لذكرها، لكن أحب فقط أن أشير إلى أمر هام فى هذا المجال فهو يكشف عن مدى التنافس بين الفريقين. وهو أنه فى الوقت الذى بنى فيه الفاطميون الجامع الأزهر فى أواسط القرن الرابع لتأييد مذهب الشيعة ونشره. بنى نظام الملك – وهو وزير فى الدولة السلجوقية – المدارس النظامية فى أواسط القرن الخامس لتأييد ونشر المذهب السنى.

واستجاب لها أئمة كبار من أهل السنه ليدرسوا فيها مذهب أهل السنه، وكان من أهم تلك المدارس مدرسة ببغداد ومدرسة ببلخ ومدرسة بنيسابور ومدرسة بهراه ومدرسة بمروه وغيرها.

هذه هى الحالة السياسية للعصر الذى عاش فيه عين القضاه، ومن هذا العرض الموجز نرى أن العنصر المتغلب على أمور الخلافة هو العنصر التركى ممثلاً فى السلاجقة الذين كانوا يعتنقون المذهب السنى ويبذلون قصارى جهدهم من أجل تقويض المذهب الشيعى الذى يدين به الفاطميون.

---

(١) انظر: الكامل لابن الأثير ح ٣ ص ٢٢١ – ٢٢٧.

وقبل أن أنتقل إلى الحالة العلمية والثقافية أحب أن أبنه إلى أمرين هامين:

الأمر الأول:

أن نظام الملك حين يكثر من بناء المدارس لنشر المذهب السنى وحين يبنى الفاطميون الأزهر الشريف لنشر المذهب الشيعى لم يكن الهدف عند هؤلاء وأولئك دينيا ولا المنطلق عقائديا فحسب.

وبعبارة أخرى: لم يكن الهدف من وراء ذلك خدمة الدين أو نشر الدعوة أو تثبيت العقيدة بقدر ما كان الهدف سياسياً يلتمس الفريقان من ورائه تثبيت الملك وظهور السلطان وارساء دعائم الدولة وأن يظفر كل من الفريقين بأكبر عدد ممكن تكون له وبه الغلبة على الفريق الآخر.

فلم تكن الأموال التى أنفقها نظام الملك على المدارس النظامية وطلابها لم يكن الهدف من ورائها تمكين الدين فى نفوس الناس ونشر العلوم الدينية فحسب.

وانما كان الهدف من ذلك بالدرجة الأولى وفى المقام الأول جمع القلوب حول أمراء الدولة السلجوقية، وقد أدرك ذلك الكتاب والمفكرون.

ولذلك يقول صاحب (من أعلام العرب الجوينى): «فنظام الملك ببناء هذه المدارس والانفاق عليها بسخاء لم يكن يرمى إلى نشر العلوم الدينية فحسب. وانا كان يهدف فى قرارة نفسه إلى تحقيق اصلاح جذرى لأحوال البلاد المضطربة بجمع القلوب حول أمراء الدولة السلجوقية وطبعهما على الاخلاص للمذهب»[1].

(١) د/ فوقية حسين ص ٤٤ - الجوينى أمام الحرمين - سلسلة من اعلام العرب.

وإذا كان هذا هو هدف نظام الملك من انشاء المدارس النظامية فقد تحقق له ما أراد.

ويقول المؤلف أيضاً:

«ولا يغيب عنا ما كان لتثبيت دعائم المذهب من أثر طيب فى تقوية دعائم الدولة السلجوقية السنية المذهب وتمكينها من سلطات الحكم[١].

بل إن نظام الملك نفسه قد اعترف بذلك فحين وشى الواشون بنظام الملك لدى السلطان «ملك شاه» بسبب الاموال الباهظة التى كان ينفقها على المدارس النظامية وعلى طلبها العلم فيها والتى بلغ قدرها ٦٠٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة تقريباً.

عند ذلك وقف نظام الملك مدافعاً عن نفسه قائلاً: «إنى قد أقمت جيشا يسمى جيش الليل، إذ نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامها صفوفاً بين يدى ربها فأرسلوا دموعهم وأطلقوا ألسنتهم، ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك، فانت وجيوشك فى حصانتهم تعيشون وبدعائهم تبيتون وببركاتهم ترزقون»[٢].

اذن كان نظام الملك يهدف من وراء انشاء المدارس إلى تحقيق حصانة الدولة السلجوقية وذلك بوضعها فى حراسة جيوش التابعين للمذهب السنى وإلا ضاع الملك والسلطان.

وفى النهاية نستطيع أن نقول إن الحالة السياسية والغرض السياسى فى تلك العصور قد اتخذ طابعاً دينياً ولبسا ثوب الدين وتسترا وراءه.

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣.
(٢) زكى مبارك - الأخلاق عند الغزالى ص ١٦.

وأن التنازع والتنافس بين الفرق كان بالحقيقة بهدف الملك والسيطرة والسيادة وإن أظهروا ذلك باسم الدين وألبسوه ثوب الاسلام.

وقد أثرت تلك القضية حتى لا يتوهم أن التصارع بين الفرق هو أمر دينى فيجب أن يلحق بالحالة الدينية لتلك العصور لا بالحالة السياسية لها.

الأمر الثانى:

الذى أحب أن أشير إليه هو أنه ينبغى أن يلاحظ أن تعدد الخلفاء واستقلال الأمراء بما تحت أيديهم من الملك لم يكن معناه وضع حواجز اقليمية بين أجزاء هذه المملكة(١).

بحيث تحول هذه الحواجز بين المسلمين فى المشرق وبين اخوانهم فى المغرب. ولكن كان للمسلم حق المواطن فى كل جزء من أجزاء العالم الاسلامى ويتلقى العلم من الشيوخ فى بلاد ما وراء النهر وخراسان وفارس والعراق - كما يتلقاه فى مصر والشام والمغرب والاندلس.

ولذلك فحين يعيش عين القضاه فى خراسان فليس معنى ذلك أنه كان منقطعاً عما يحدث فى غيرها من البلدان بل كانت الصلة قوية والتأثير مباشراً.

الحالة الاجتماعية:

فى الوقت الذى كان فيه السلجوقيون يبسطون سلطانهم على فارس والعراق والجزيرة إلى آخر ما استولت عليه من أقطار اسلامية، كان الفاطميون يسيطرون على المغرب وعلى مصر ويسعون إلى بسط سلطانهم على أقطار المشرق.

---

(١) راجع: معجم البلدان.

وحيث كان السلجوقيون يتبعون المذهب السنى، والفاطميون يؤيدون المذهب الشيعى، لذا كان التنافس بينهم شديداً، كل يحاول بشتى الوسائل وبكل الطرق أن يستميل الناس إلى مذهبه وعقيدته على النحو الذى بيناه.

وترتب على ذلك أن اضطرب الناس وثار بعضهم على بعض، وأصبح الناس وقد ماتت فى نفوسهم معانى المحبة والأخوة، كما توفر الكثيرون على اللهو واللعب والشراب، فعم البلاد الخراب وكثرت الفتن والثورات وانتشر الرعب فى النفوس، ولسنا بصدد بيان ذلك بالتفصيل فاليرجع إليه من شاء.

الحالة العلمية:

فى هذا البحر المتلاطم الأفواج، وعلى هذا المسرح المتناقض الأهواء، لا ينمو تفكير، ولا ينهض علم، ولا تزدهر فلسفة. لولا أن حكام الدولة العباسية، وكذلك حكام الدويلات التى انقسمت عن الحكم العباسى بعد ضعفه.

لولا أن هؤلاء وأولئك شجعوا العلم والعلماء، وأفسحوا لهم صدورهم لانهم كانوا يرون فى ذلك بقاء دولتهم وتثبيت سلطانهم. وكان السلاجقة وهم الذين كانت لهم الغلبة والسيطرة فى المنطقة يسيرون على ذلك النهج ويقتفون هذا الأثر.

ولذلك لا تعجب إذا قلنا:

إذا كانت الحياة من الناحيتين السياسية والاجتماعية قد حفلت ببعض الاضطرابات فعلى خلاف هذا تماماً كان الوضع بالنسبة للناحية الثقافية.

ولا تعجب أيضاً إذا علمنا أن القرن الخامس الهجرى - وهو القرن الذى ولد

فيه عين القضاه – قد خرج وأنجب الكثيرين من الافذاذ من العلماء الذين كان لهم الفضل على كل الأجيال التالية لهم والآتية بعدهم.

ويصعب على الانسان أن يأتى بمسألة أو نظرية فى مجال الكلام أو الفلسفة أو التصوف لم يثرها ولم يضع بذورها علماء القرن الخامس ومن سبقوهم. ولعلنا نذكر صوراً مبسطة ومختصرة تبين منها الملامح الثقافية لعصر عين القضاه الهمذانى.

فإذا بدأنا بالعلوم الكلامية وجدنا القرن الخامس الهجرى قد حفل الكثير من الاتجاهات الكلامية. فهناك الاشاعرة وهناك المعتزلة والماتريدية والخوارج والشيعة والجبرية والقدرية والكرامية. والكل يعمل جاهداً على نصرة مذهبه وما يعتقد أنه ألحق بإقامة الأدلة وانشاء البراهين.ولا شك أن بيئة مثل هذه تتصارع فيها الاراء والاتجاهات الكلامية تخرج الكثير من الأفذاذ.

منهم – على سبيل المثال لا الحصر – القاضى عبد الجبار المتوفى سنه ٤١٥هـ[١] وكان امام المعتزلة فى زمانه.

ومنهم: عبد السلام بن يوسف القزوينى المتوفى سنه ٤٨٢هـ[٢] وكان من كبار رجال الاعتزال.

ومنهم: أبو اسحاق الاسفراينى المتوفى سنه ٤١٨هـ[٣]. وعبد القاهر بن طاهر البغدادى، صاحب كتاب: أصول الدين، الفرق بين الفرق، والمتوفى

(١) راجع: السبكى – طبقات الشافعية الكبرى ح ٣ ص ٢١٩.
(٢) المصدر السابق ص ٢٣ ح ٣.
(٣) راجع: وفيات الأعيان – لابن خلكان ح ١ ص ٦.

سنة ٤٢٩هـ[١]. وأبو بكر البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨هـ[٢]، وامام الحرمين الجونبى المتوفى سنة ٤٧٨هـ[٣].

ومنهم – وعلى رأسهم – الشخصية الجامعة بعمق بين علم الكلام والتصوف والفلسفة حجة الاسلام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥هـ[٤] والذى أثرى المكتبة الاسلامية بالعديد من الكتب والمؤلفات.

وفى الجانب الفلسفى: برزت فى هذا العصر شخصية فلسفية تعرضت لمختلف المسائل وشتى الفروع وحرصت على امداد العقول بالزاد الفلسفى العميق وهو أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا المتوفى سنه ٤٢٨هـ[٥]. وعمر الخيام المتوفى سنة ٥١٥هـ[٦]، وقد تتلمذ عليه عين القضاه وأخذ عنه واستفاد منه كثيراً.

أما فى مجال التصوف:

فقد تربعت فى هذا العصر شخصية صوفية لها مكانتها فى التصوف وعلوم الحكمة، وهى شخصية الامام أبى القاسم القشيرى المتوفى سنة ٤٦٥هـ. والذى ألف الرسالة القشيرية التى كان من أهم أهدافها الدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة.

وممن عاش فى هذا العصر أيضاً وكان له شأنه فى مجال التصوف والأخلاق أبو على الحسن على الدقاق، وأبو عبد الرحمن السلمى، وأبو

(١) راجع: طبقات الشافعية – للسبكى ح ٣ ص ٢٣٨.
(٢) راجع: المصدر السابق ح ٣، ٤.
(٣) راجع: طبقات الشافعية للسبكى ح ٣ ص ٢٤٨.
(٤) راجع: شذرات الذهب – لابن العماد ح ٤ ص ١٠.
(٥) راجع: تاريخ حكما بالاسلام – للبيهقى ص ٥٢.
(٦) راجع: الأعلام للزركلى ح ٥ ص ١٩٤.

العباس القصار.

اذن نخرج من كل هذا بنتيجة مؤكده وهى أن القرن الخامس الهجرى كان حافلاً بالعمق الكلامى والفلسفى والتصوفى.

وإن نظرة متأنية فى فكر من تعرضنا لذكر اسمائهم تعطينا دلالة واضحة على أن تعمق عين القضاه فى الزبدة لم ينشأ من فراغ وانما نشأ من تصارع فكره مع أفكار من عاصروه ومن سبقوه.

ويتضح هذا جلياً فى زبدة الحقائق فهو مصنف كلامى ضخم له قيمته فى مجال الكلاميات(١).

ونحن بعد هذا نرى أن عين القضاة قد تأثر فى علمه بالجو المحيط به من ناحيتين:

الناحية الأولى:

هى هذا الجو الملوث بجراثيم الفتنة والمسعر بتار العداوة والمعكر بغبار التعصب.

ذلك العصر الذى كان عصر فتن واضطراب سياسى وفكرى وعواصف وأعاصير.

ذلك الجو الذى ماتت فيه معانى الاخوة وضاعت فيه القيم بحيث لا يتنزه فيه الابن أن يقتل أخاه، ولا الوالد ابن عمه، ولا القريب قريبه، وهو ما كان بين السلجوقيين والفاطمية من شيعة وأهل سنة من أجل الملك والسيطرة.

لذا أراد عين القضاة بكتابة «الزبدة» وبحديثه عن الاطوار التى تلى

(١) وسوف نقف على ذلك ونفصل القول فيه فى بحثنا المرتقب عن هذا المؤلف الذى جمع فيه عين القضاه بين الكلام والفلسفة والتصرف.

العقل أن يلفت الانظار ويوجه الهمم إلى عمل هو أعظم من التعصب وإلى أمر هو اشرف من العداوة ومن السلطان والملك وهو الاقبال بكنه الهمة على الله سبحانه وترك علائق الدنيا والبعد عن شهوات الحياة والتطلع إلى مرحلة من الايمان واليقين يجاوز فيها الانسان حدود العلم والعقل إلى الكشف والذوق.

ولكن: لماذا اختار عين القضاه هذا النوع من الدراسة بالذات وآثر أن يكتب فى الأطوار التى تلى العقل؟.

نقول: لأن المقاومة تتبع الضغط قوة وضعفا، ألم تر إلى القدرية وكيف أنهم لما نفوا القدر وقالوا قولتهم الشهيرة: لا قدر والأمر أنف.

قال الجبرية وكرد فعل لهذا: إن الانسان كريشة معلقة فى الهواء تصرفها الأقدر حيث شاءت.

كذلك هنا من غير فرق.

فلما استأسد الصراع، وتنمر الجدل والخلاف بين الآراء والمذاهب والمعتقدات، وتعددت الفرق ورمى بعضها البعض بالإنحراف والزندقة.

وكان من نتيجة ذلك اختفاء كثير من الحقائق الدينية وراء سحب كثيفة من ظلمات الجهل والحيرة، وضياع تعاليم الدين وانطماس معالمه.

لذا هب عين القضاة يكتب فى الكشف والذوق والاطوار التى تلى العقل موجها الأنظار إلى أن هذا أحق أن يطلب وأجدر بأن توجه الهمم إليه.

أما الناحية الثانية التى تأثر بها عين القضاة:

فهى الجو الناقم على الفلسفة وعلى المشتغلين بها والعاملين فى حقلها، وهو الجو الذى أثاره الغزالى بتعضيد من هؤلاء الذين بيدهم الأمر فى ذلك

الوقت وهم السلاجقة.

فهؤلاء قد أوجسوا خيفة من الفلسفة ووجدوا فيها كل الخطر على دولتهم والمنازع الأوحد للاسلام.

ونحن نعلم أن الغزالى رحمه الله قد نشأ فى عهد السلاجقة ٤٥٠ - ٥٠٥هـ وعاش فى كنفهم واشتغل بالتدريس فى مدارسهم(١).

كما نعلم أنه شن الحرب على الفلاسفة ورماهم بالكفر والزندقة، ولسنا بصدد قيمة نقد الغزالى للفلسفة(٢)، ولكن الذى يعنينا من ذلك أمران:

الأمر الأول: أن نقده قد سرى وانتشر بين أرجاء المملكة الاسلامية وفى مختلف نواحيها.

الأمر الثانى: أن نقده للفلاسفة كان فى حقيقته انكار لما ذهبوا إليه وزعموه من قدرة العقل على معرفة جميع الاشياء وادراك كل الحقائق حتى ما يتصل منها بما وراء الطبيعة والألوهية.

وحيث إن عين القضاه كان تلميذ الحجة الاسلامية الغزالى وقرأ كتبه واستفاد منها واقتنع بما جاء فيها.

لذا فقد سار على نفس النهج ومش على ذات الطريق وكتابه زبدة الحقائق خير دليل على هذا.

فقد جاء فى كتابه المذكور مؤكدا بما لا يترك مجالاً للشك عجز العقل وقصوره عن ادراك كثير من الحقائق كحقيقة الذات الالهية وحقيقة الصفات،

---

(١) راجع: الاخلاق عند الغزالى - زكى مبارك ص ١٤ - ٢٨.

(٢) انظر كتابنا: المسائل التى كفر الغزالى فيها الفلاسفة والذى وقفت فيه كلما عدلا بين الغزالى وبين الفلاسفة فيما ذهبوا إليه وكفرهم به.

وحقيقة النبوه وغيرها.

وأخيراً نخرج من هذا بنتيجة مؤداها أن كتاب الزبدة لصاحبة عين القضاه كان نابعاً من روح العصر ونبض المجتمع ومتطلبات البيئة التى عاشها المؤلف.

فلم يكن – عين القضاة – منعزلاً عن مجتمعه ولا متقوقعاً على نفسه بل كان – مع ايثاره طريق الخلوة والتصوف – يعيش آلام المجتمع وأماله ويحس بها ويعمل على اصلاحها، وكيف لا والتصوف فى حقيقته ليس تصومعاً ولا انعزالاً عن الناس وانقطاعاً عن ركب الحياة، وإنما هو انطلاقه إلى الكمال، وفلسفة روحية انسانية تقوم على أساس من مراقبة الله فى كل شيئ، ومحاسبته النفس على كل شيئ، ومجاهدتها فى كل حال، لتصفوا من الشوائب، وتخلص من العلائق، ومن ثم يسعد الانسان فى ذاته.

ويحظى بمحبة الله ورضاه، ويعيش فى كنفه وحماه، ويحيا مع الآخرين على صدق واخلاص، وهذه ايجابية قوية تدفع الانسان إلى بناء الحياة.

هذا هو التصوف الحقيقى الصادق القائم على النظر العقلى والارتياض الروحى وهو مذهب عين القضاه.

أما التصوف المزعوم القائم على التواكل والخمول ومجرد التبتل وانتظار فيض الله فقد رفضه عين القضاه وأبى أن يكون له مذهباً وطريقة حياه.

والسؤال الآن:

على من تلقى عين القضاه العلم؟

تذكر كتب التراجمة أن عين القضاه تتلمذ وتلقى العلم على عمر

الخيام وأحمد الغزالى:

ولنا فيما يتعلق بشيوخ عين القضاه ملاحظتان.

الملاحظة الأولى:

أن هذه التراجم قدمت ذكر عمر الخيام على أحمد الغزالى رغم أن عين القضاه كان تتملذه بالدرجة الأولى وفى المقام الأول على الشيخ أحمد الغزالى إذ كان عين القضاه ملازماً لذلك الشيخ متخذاً من عتبة بابه مستقراً ومقاماً على ما صرح هو بنفسه أكثر من مرة فى الزبدة.

أما عمر الخيام: فلم يرد له ذكر فى كتاب الرجل لا تصريحاً ولا تلميحاً، وهذا بدل على أن صلته الروحية بالغزالى كانت أوثق وأعمق، واستفادته منه أكثر وأعظم، وتأثره به أتم وأشمل.

ويتضح لك ذلك إذا قرأت نصوصاً من الزبدة - وهى كثيرة - أشاد فيها عن القضاه باستاذه أحمد الغزالى وبأخلاقه ومدى تأثره به وأخذه عنه، وأنه عرضت له وهو فى طريق العلم عقبات وتردى فى ورطات كادت تقطع عليه طريق الطلب لما وراء العلوم، ولازمته الازمة قريباً من سنة لا يعرف خلالها حقيقة الواقعة التى وقعت له، حتى كان التقاؤه بشيخه أحمد الغزالى، فانكشف له فى خدمته قناع الحيرة عن وجه تلك الواقعة فى اقل من عشرين يوماً، وشاهد جلية الحال فى ذلك.

وإليك ما يقوله عين القضاه فى هذا الصدد:

إنه يقول:

«وكنت أقف فى اثناء ذلك على القواطع التى كادت تقطع على طريق الطلب لما وراء العلوم، وبقيت فى ذلك قريباً من سنه وأنا بعد لم أقف على

﴿٦١٦﴾

حقيقة الواقعة التى وقعت لى فى تلك السنه حتى إن سيدى ومولاى الامام الأجل سلطان الطريقة وترجمان الحقيقة أبا الفتوح أحمد بن محمد بن محمد الغزالى – متع الله بأنفاسه أهل العصور والاسلام وجزاه عن غير جزاء ساقه التقدير إلى همذان – وهى مسقط رأسى – فانكشف فى خدمته قناع الحيرة عن وجه تلك الواقعة فى أقل من عشرين يوماً، فشاهدت جلية الحال فى ذلك، ثم طوليت بشيئ لم يبق من طلب لغيره إلا ما شاء الله.....»[1].

ولئن دل هذا النص على أن التقاء عين القضاة بشيخه وامامه أحمد الغزالى كان من قبيل المصادفة كما تدل عليه عبارة «ساقه التقدير» إلى همذان، وأن لقاءه به أخرجه من ورطته.

فإن هناك نصوصاً أخرى وعبارات ثانية ذكرها عين القضاه فى زبدته تشير إلى مدى الصلة الروحية والارتباط الوثيق الذى ربط التلميذ باستاذه والطالب بشيخه، ذلك الارتباط الذى تجاوز الارتباط العادى الذى يتمثل فى امتثال الأمر وسماع النصح وتقبل الوجيه إلى طور أعلى وأعظم وأشمل واكمل، ذلكم هو طور التفرغ روحا وقلبا ولبا ولبابا لخدمة ذلك الشيخ، وهو ما كان من صاحبنا عين القضاه تجاه شيخه وامامه أحمد الغزالى.

وسأضع بين يدى القارئ عبارات من الزبدة ذكرها عين القضاه فى شيخه واطرائه.

انه يقول:

«ينبغى لطالب الحق إذا حفظ القدر الذى تيسر له فى تلك المسائل أن

(١) راجع ذلك النص فى الزبدة (نسخة محققه بمكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة وهى رسالة ماجستير للباحث/ ابراهيم أحمد محفوظ.

يعاود النظر فيه ويجالس أهل الكمال العلمى ان وجدهم وظفر بخدمتهم ما أمكن»[١].

فهو يرى فى أحمد الغزالى كمالا علمياً ويعتبره من أهل الكمال العلمى.

ويقول فى موضع آخر:

«نعم المعين للطالب على تصفية الباطن مصاحبة أهل الذوق ومجالستهم وخدمتهم من صميم القلب.

وأعنى بأهل الذوق اقواما طهروا بواطنهم من رذائل الأخلاق حتى فاضت عليها من ألطاف الحق ما تستحيل عليه العبارة، وهم قوم لا يشقى بهم جليسهم، وقلما تخلو بقعة من البقاع منهم»[٢].

وهو فى هذا النص أيضاً يرى فى أحمد الغزالى أهل الذوق ويراه من الذين طهروا بواطنهم من رذائل الأخلاق ومن الذين فاضت عليهم أنوار الحق.

ويقول أيضاً:

«السعادة كل السعادة للطالب ان يتفرغ بكلية روحه وقلبه لخدمة واصل منهم متى فى الله عز وجل وفى مشاهدته، حتى إذا أفنى عمره فى خدمته أحياه الله حياة طبيعة ليس منها مع العلماء سوى رسم راسم»[٣].

ثم يصل عين القضاه إلى مقصوده وغايته، ويبين لنا أن الشيخ المقصود فى النصوص السابقة هو الشيخ أحمد الغزالى فيقول:

---

(١) راجع ذلك النص فى الزبدة.
(٢) راجع زبدة الحقائق.
(٣) راجع هذا النص فى الكتاب المذكور قسم التحقيق.

«لولا أن الجودة الأزلى أخذ بضبعى ووفقنى لخدمة شيخ كبير منهم وإلا لما تصور لى خلاص من تلك الضلالات التى رسخت فى الباطن من ممارسة العلم، ولا انتفعت أيضاً بخدمة الشيخ الامام الأجل أحمد بن محمد الغزالى – رضى الله عنه – إذ لولا ملازمى لعتبة باب ذلك الشيخ لكان يتراكم فى القلب على تعاقب الأيام والليالى صفات مذمومة يتعذر الخلاص منها ويستحيل»[1].

فانظر اخلاص التلميذ لشيخه ووفاءه له، انه اخلاص رواده قليلون بيل لا أكون مبالغاً إذا قلت: لقد شعر الزمن من هؤلاء، أن هذا السيل الدفاق من التواضع والاعتراف بالجميل والفضل. إن هذا الارتباط الروحى الذى ربط بين التلميذ (عين القضاه) وبين الشيخ والامام (أحمد الغزالى) قد بهر أعداء الاسلام وهز مشاعرهم مما جعل «ماسينون» فى كتابه «شخصيات قلعة فى الاسلام» يذكر لعين القضاه هذا الاخلاص ويسجل له هذا الخلق وينشر له هذا الارتباط بصورة تلفت النظر وتسترعى الانتباه فيقول – وهو يتحدث عن السهروردى المقتول ومدى اخلاص تلميذه له فيذكر ماسينون أن هذا الاخلاص يشبه إلى حد كبير الاخلاص الذى جمع بين الشيخ أحمد الغزالى وبين تلميذه عين القضاه فيقول:

«لدينا إلى جانب الأخبار التى تركها لنا الرواة وثيقة ترجع أهميتها الكبرى إلى صدورها المباشر عن تلميذ هو الشهرزورى المتوفى سنة ٦٤٨هـ وفيه تشاهد الحماسة والاخلاص الذين لا حد لها والذين أثارهما الشيخ فى نفس التلميذ وهو لا يزال فى غضارة الشباب، كما تشاهده وهو يرد بعنف رائع الطعنات التى وجهت ضد شيخه يرردها إلى صدور الذين اتهموا من

(١) راجع هذا النص فى الكتاب المذكور.

فقهاء وفلاسفه.....

ثم يقول المؤلف:

وهذا الاخلاص الذى يشبه الاخـلاص الـذى جمـع بيـن أحمـد الغزالـى المتوفى سنة ٥٢٠هـ[١] وبين تلميذه عين القضاه الهمذانى المتوفى سنة ٥٢٦هـ لهى شهادة لها قيمتها من الناحية النفسانيه »[٢].

فإذا كان الشيخ أحمد الغزالى – رحمه الله – قـد نـال مـن تلميـذه كـل هذا الاعجاب حتى ذكره عين القضاه فى أكثر من موضع من كتابه.

وإذا كان عمر الخيام لم يذكر فى الزبدة ولم يحدث عنه تلميذه عين القضاه ولم نجد له أى أثر علمى او ارتبـاط روحـى اعـترف بـه عيـن القضـاه تجـاه عمـر الخيام كما فعل بالنسبة للغزالى.

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا – اذن – قدمت كتب التراجم – فى الذكـر – عمر الخيام على أحمد الغزالى؟

إن هذا فيما نرى وضع للشيئ فى غير موضعـه ورد للفضـل إلـى غـير أهلـه ونسبة للجميل إلى غير أصحابه.

أما الملاحظة الثانية:

التى أريد أن أسجلها فيما يختص بشيوخ عين القضاة:

أن كتب التراجم حين عرضت الشيوخ ذلك الامام اقتصرت على عمـر الخيـام

(١) لا ندرى من أين أتى ماسينون بهذا التاريخ مع أن كتب التراجم قد أجمعت على وفاته سنة ٥٢٥هـ. والذى يظهر لى أن ماسينون قد أخطأ فى نقل التاريخ.
(٢) ماسينون – شخصيات قلقة فى الاسلام ص ١٣٢ مكتبة الأزهر.

وأحمد الغزالى، وأهملت حجة الاسلام أبا حامد الغزالى فلم تذكر - ولو أثاره من علم - تدل على تأثره به وأخذه عنه، وهذا فيما نرى يتنافى مع الحقيقة والواقع، بل مع ما ذكره واعترف به عين القضاة نفسه.

إذ يذكر صراحة - ومن خلال كتابه الزبدة - أنه قرأ جميع كتب الغزالى وأنه عكف على تصفحها وتفهمها قرابة الأربع سنوات لا عمل له إلا هذه الكتب يغترف من بحارها ويرتوى من فيضها، عكف عليها يستلهم منها تمهيد تأليفاته وتأسيس مصنفاته، عكف عليها يستلهم منها دواء المرضه وعلاجاً لسقمه.

وعلى الجملة فحين طالع كتب الكلام طلباً للارتفاع عن حضيض التقليد إلى ذروة اليقين والبصيرة لم تحقق له كتب الكلام هذا الغرض فلم يظفر منها بمقصوده وتشوشت عليه قواعد المذاهب، فما أخرجه من ورطاته وخلصه من هذا المأزق بعد الله تعالى إلا مطالعة كتب الشيخ أبى حامد الغزالى.

فإذا كان الرجل قد تأثر بحجة الإسلام إلى هدا الحد فلماذا لم يذكر كشيخ مؤثر ومهم ضمن شيوخ عين القضاه؟

وماذا يعنى التتلمذ فى نظر هؤلاء الذين أهملوا الشيخ ولم يشيروا إليه؟

أيعنى مجرد المجالسة والمشافهة؟ إنها نظرة ضيقة وتفكير محدود يعنى بالقشر دون اللباب وبالعرض لا بالجوهر وهو مذهب جديد بأن يعاد فيه النزظر وتتغير فيه الموازين، وأن يراعى فيه أن يكون المعول عليه هنا هو التأثير والتأثر، والافادة والاستفادة بصرف النظر عن اتحاد العصر أو اختلافه، تقارب الأيام أو تباعدها حدثت المجالسة وتمت المشافهة أو لم

يحدث شيئ من ذلك.

إن التتلمذ يعنى - فيما أرى - أمراً هو أشرف من مجرد رؤية التلميذ للشيخ ومعاصرته وحضور مجلسه وسماع أقواله صوتا وحضوراً.

أنه يعني وصول خواطر الشيخ الايمانية ومعارفه الربانية إلى التلميذ أو المريد سواء كان الوصول مباشراً وهوالتقاء التلميذ بالشيخ وأخذه عنه مشافهة.

أو غير مباشر كتتلمذه على مائدة كتبه ومؤلفاته، المهم أن يستوعب التلميذ فكر الشيخ ويهضم علم الاستاذ ويكون له الاثر الاكبر فى حياته، بحيث إذا تردى فى ورطة أو أوشك السقوط فى هاوية كانت علوم شيخه ومؤلفاته له حصناً وملجئا ورداءاً وعوناً فما يخرجه من ورطته ولا يساعده على قطع عقبات طريقه إلا مطالعتها وتصفحها، وهو ما كان من شيخنا عين القضاه تجاه استاذ وشيخه حجة الاسلام الغزالى.

ولعل حجة هؤلاء الذين لم يذكر واحجة الاسلام كشيخ من شيوخ عين القضاه أنهم لم يقرؤا الزبدة ولم يطلعوا عليها وإلا فربما كان لهم رأى آخر.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى:

فإن التقاء عين القضاه بحجة الاسلام الغزالى وحضور مجلسه وأخذه عنه مباشرة أمر محتمل بل هو احتمال قوى لسببين:

السبب الأول:

أن الغزالى ولد بطوس وهى مدينة من مدن خراسان.

وعين القضاه ولد بهمذان وهى - أيضا - مدينة من مدن خراسان فموطنهما اذن واحد.

السبب الثانى:

أنه توفى حجة الاسلام وعين القضاه يبلغ من العمر اثنا عشر عاماً أو يزيد قليلاً، إذ توفى الغزالى سنة ٥٠٥هـ وعين القضاه سنة ٥٢٥هـ.

فإذا أضفنا أن عين القضاه كان قوته بعد أن جاوز الثلاثين بقليل - كما ذكر صاحب شخصيات قلقة فى الإسلام - علمنا أن عين القضاه عاصر الغزالى اثنى عشر عاماً تقريباً وهى مدة غير قليلة بالنسبة لشخص مثل عين القضاة وهو ما هو، إنه الذى ألف زبدة الحقائق وهو ابن أربع وعشرين سنة، وكان قد ألف قبلها رسائل منها الرسالة الغلامية (فى نفس موضوع الزبدة كتبها للعوام) وغاية البحث عن معنى البعث[1] كتبها وهو ابن واحد وعشرين سنة مما يدل على تطلعه المبكر إلى العلم واهتمامه منذ الصغر بتحصيله، فما الذى يمنع أن يكون عين القضاه قد التقى - وهو فى هذه السن المبكره - بالغزالى واستمع إليه؟

وسواء صح ذلك منه أم لم يصح فإن تأثر عين القضاة بحجة الاسلام وأخذه عنه أمر مفروغ منه.

ومن طالع الزبدة لا يصعب عليه العثور على ألفاظ وعبارات - وهى كثيرة - نقلها عين القضاه من كتب الغزالى، بل إن التشابه بينهما قد تعدى هذا ليشمل المنهج والطريق لدى كل منهما وهو المنهج الصوفى المخروج بالفلسفة، وكل منهما قد اختبر العلوم ومارس العلم قبل التصوف فلم تقنع به نفسه ولم تسكن به فورة طلبه بل طالبته بما وراء العلوم من الأمور البهيه، وكل منهما شك وارتاب وبقى فى الشك والارتياب مدة غير قصيرة ثم ارتمى

(١) هما رسالتان نص عليها عين القضاة وللأسف لم تعثر عليهما.

أخيراً فى أحضان التصوف.

بل إن التشابه بينهما تعدى كل ذلك إلى أشياء ربما نشير إليها فى بحث مستقل(١).

فإذا كان تأثر عين القضاه بحجة الاسلام الغزالى قد بلغ هذا الحد فلماذا لم تشر كتب التراجم إلى ذلك؟

إن هذا وان فات كتب التراجم والمترجمين فينبغى أن لا يفوت أسرة التحقيق والمحققين.

ينبغى أن لا يفوت محقق هل همه وضع الاشياء فى مواضعها ورد الحقوق إلى أصحابها.

«تلاميذه»

أما عن تلاميذ عين القضاه فإن كتب التراجم لا تكشف عن تلاميذ لذلك الشيخ والامام، ولا يعنى ذلك سوى شيئ واحد وهو أن من ترجموا له قصروا فى ترجمتهم فلم يصلنا إلا القليل من المعلومات، وأحسب أن دراسات متأنية فى هذا المجال هى مهمة أساسية للدراسين فى المستقبل تكشف عن الكثير من تلاميذ الشيخ ومن نقلوا عنه.

مؤلفات عين القضاه والمصادر التى تحدثت عنها

١- زبدة الحقائق - وسنخصص للتعريف به بحثاً مستقلاً.

٢- الرسالة العلائية وجاء ذكرها فى الزبدة وذكر أنه عملها فى مذهب السلف

(١) لكن ليس معنى هذا أن عين القضاه كان مجرد ناقل عن الغزالى أو عاش حياته العلمية عالة عليه، فإن هناك من المسائل - وستعرف ذلك فى موضعه - خالف فيها عين القضاه استاذه الغزالى.

﴿٦٢٤﴾

وهى فى نفس موضوع الزبدة توجه بها إلى العوام، وأما الذى يشفى عليل الخواص فقد اعرب عن بيانه فى الزبدة، وقد أغفلت كتب التراجم تلك الرسالة ولم تشر إليها.

يقول عين القضاه:

«..... وقد ذكرت فى الرسالة العلانية التى عملتها فى مذهب السلف الصالحين - رضى الله عنهم - ما لا يستغنى عن اعتقاده العوام فى تلك الأصول.

وأما الذى يشفى عليل الخواص فقد أعربت عن بيانه فى هذه الفصول (يريد الزبدة).

٣- رسالة وسمها بـ «غاية البحث عن معنى البعث» والمصادر التى تحدثت عنها أيضاً هى الزبدة.

وذكر عين القضاه أنه أملى هذه الرسالة وهو ابن احدى وعشرين سنة.

وقد أهملت كتب التراجم أيضاً هذه الرسالة فلم تشر إليها، ولولا أن عين القضاه ذكرها فى الزبدة لما عرفنا أن له رسالة بهذا الاسم.

يقول عين القضاه فى الزبدة:

«..... وقد ذكرت فى حقيقة النبوة وما يتعلق بها من المقومات العلمية فى رسالة الموسوعة بغاية البحث عن معنى البعث ما يشفى عليل الطالب المستفيد ويكفى الناظر المستبد بنظره السديد..... وكنت إذ أمليت تلك الرسالة ابن احدى وعشرين سنة وأنا الآن ابن أربع وعشرين سنة، ولقد أفاضت على الرحمة الأزلية فى هذه السنيين الثلاث من أنواع العارف الغيبية ونفائس الأحوال الكشفية ما يتعذر عليه شرحه ووصفه.

﴿٦٢٥﴾

٤- مدار العيوب فى التصوف.

والمصادر التى تحدثت عنها «معجم المؤلفين لكحاله»[١]، هدية العارفين للبغدادى[٢]، وايضاح المكنون[٣].

٥- الرسالة اليمينية:

والمصادر التى تحدثت عنها: معجم المؤلفين لكحاله، كشف الظنون لحاجى خليفة[٤].

٦- شكوى الغريب عن الأوطان إلى أعلى البلدان.

والمصادر التى تحدث عنها: هدية العارفين للبغدادى.

٧- هذا بالإضافة إلى رسالة كتبها عين القضاه وهو فى سجنه ببغداد بعث بها إلى اخوانه بهمذان.

والمصادر التى تحدثت عنها: طبقات الشافعية الكبرى للسبكى[٥]، شخصيات قلقة فى الاسلام.

هذه هى مؤلفات عين القضاه كتباً ورسائل والتى ذكر بعضها فى الزبدة وذكر البعض الآخر فى كتب التراجم.

والغالب والله أعلم أن الرجل له مؤلفات أخرى لم تذكرها كتب التراجم.

ودليلنا على ذلك: أن المؤلفين رقم ٢، ٣ لم تذكرها كتب التراجم ولم تشر إليها.

---

(١) معجم المؤلفين ج ٦ ص ١٣٢.
(٢) هدية العارفين ص ٤٥٥.
(٣) ايضاح المكنون ح ٢ ص ٤٥٣.
(٤) كشف الظنون - حاجى خليفه - المعارف الجليلية.
(٥) السبكى: طبقات الشافعية ص ٢٣٦.

وللأسف الشديد لم يصلنا من المؤلفات سوى زبدة الحقائق.

ولقد بحثت كثيراً فى المكتبات ودور الكتب نشدانا للحصول على هذه المؤلفات فظهر لى أنها غير موجودة وهذا أمر عجيب يجعلنا نتساءل:

ما الذى حال بين هذه الكتب وبين الذيوع والانتشار؟ هل هناك من سبب؟

هل وراء ذلك من يد خبيثة تمكنت من تلك المؤلفات فأبادتها؟ ومن ذلك التراث فأحرقته؟

هل هناك فئة حاقدة انقضت على تراث الرجل فأحرقته وعمل فكره فحاصرته؟

نقول: نعم، إن ضياع كتب الرجل وعدم انتشارها كان بفعل الخصوم وكراهية الأعداء.

إذا كان الرجل - رحمه الله - وكما تذكر كتب التراجم وحيد عصره واما زمانه.

ففى «طبقات الشافعية» نقرأ فى وصف عين القضاه:

«أحد فضلاء العصر، وبه يضرب المثل فى الذكاء والفضل، كان فقيهاً فاضلاً شاعراً مفلقا[1] رقيق الشعر، وكان يميل إلى الصوفية ويحفظ من كلامهم واشاراتهم ما لا يدخل تحت الوصف.

صنف فى فنون من العلم، ولكن حسن الكلام والجمع فيها، وكان الناس يعتقدونه ويتبركون به، وظهر له القبول التام عند الخاص والعام حتى حسدوا اصابته عين الكحال، وكان العزيز يعتقد فيه اعتقاداً خارجاً عن الحد

(١) مفلقا: مبدعا - راجع المنتخب من أدب العرب ح ٣ ص ٤٥.

﴿ ٦٢٧ ﴾

ولا يخالفه فيما يشير به»[١].

وفى «شذرات الذهب» نقرأ فى وصف الرجل:

«الفقيه العلامة الأديب، وأحد من كان يضرب به المثل فى الذكاء»[٢].

وإذا كان الرجل هكذا شأنه – بنوغا وعمقاً وظهوراً – فقد فقد خلق له نبوغه وظهوره خصوما ومناوئين أخذوا يقاومونه وينمون عليه، وصمموا عزمهم على الانتقام منه والنيل من شخصه، حتى كانت عداوة بينه وبين الوزير أبى القاسم الأناباذى فاستغل الحاقدون هذه العداوة وقاموا بالوشاية بينه وبين الوزير، وانتهى الأمر بأن قبض عليه هذا الوزير ظلماً وصلبه وقتله. ولما قرب قتل عين القضاه وقدم إلى الخشبة ليصلب قال «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون»[٣].

يقول السبكى فى طبقاته:

«صلب عين القضاة أبو المعالى ظلماً ببلدة همذان ليلة الاربعاء السابع من جمادى الآخرة سنة خمس وعشرين وخمسمائة»[٤].

ويقول البيهقى فى تاريخه:

«صلب بسبب عداوة كانت بينه وبين الوزير أبى القاسم الأنساباذى».

فالرجل اذن صلب وقتل، ولم يكن صلبه وقتله على يد رجل عادى بل على يد وزير الدولة نفسه وبأمر منه ذاته.

---

(١) السبكى: طبقات الشافعية الكبرى ح ٤ ص ٢٣٦.
(٢) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب – لابن العماد الحنبلى ح ٣ ص ٧٥.
(٣) من الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء.
(٤) البيهقى – تاريخ حكماء الاسلام ص ١٢٣.

وهنا نسأل كل ذى لب سليم:

أيقتل الرجل ظلما وتنشر بعد ذلك كتبه؟

أيعدم الشيخ حقداً ولا تعدم قبله مؤلفاته؟

أيقتل العالم لعلمه ولا تبدد قبله علومه؟

أيسجن العارف ولا تسجن معارفه؟

أيهان الفقيه ويكرم بعد ذلك فقهه؟

أيعذب الحكيم والشاعر لحكمته ورقيق شعره ثم يحفظ بعد ذلك شعره وتحترم بعد ذلك حكمه؟

إن ذلك كالمحال بل هو المحال بعينه، ولا أحد يقول به ولا عاقل يذهب إليه.

فإذا كان الرجل لتبوئه المكانة العالية فى التأليف، واحتلاله المركز الأول فى التصنيف، وبلوغه فى شتى العلوم الفنون الذروة والقمة، إذا كان بذلك قد صلب وقتل وسجن وعذب ألا يكون من الطبيعى بعد ذلك أن تصادر كتبه ومؤلفاته؟ ألا يكون من الطبيعى بعد ذلك أن يحرق تراثه وتلقى فى اليم علومه ومعارفه؟

نعم: بل يكون ذلك على العدو أيسر وأسهل واعذب. فلا نعجب بعد ذلك إذا بحثنا فى المكتبات فلم نجد لتراثه أثراً، ولا لمؤلفاته ذكراً.

ولكن: لا يفوتنا أن نحمد القدر ونشكر الإله أن أبقى لنا اسمى كتب الرجل وأثمنها وزبدتها وخلاصتها وهو كتاب «زبدة الحقائق»

من خلاله نستخرج منهج الرجل، ومن بين ثناياه نقف على عقيدة العالم، ولنا لقاء آخر نتعرف من خلاله على هذا المؤلف ونتحقق من نسبته إلى عين القضاه.